العربية في ظل الإسلام؟

أ.د. عبد الجليل مرتاض (ج. تلمسان)

ما هي العربية؟

ليس من السهل إقامة تعريف بطرق قصيرة للعربية، غير أن التعريف الذي نريد أن نعرّف به العربية لا يعدو، وفي هذا المقام، أن يكون تعريفا عادياً وليس تعريفاً فقهياً أو لسانيا، فللعربية تاريخ له ماض طويل ومجيد، وحضارة وتراث وتشابك مع بعض اللغات واللهجات القديمة في كامل الشرق الأدنى، ولاسيما فيما بين النهرين منذ عهد الأكاديين، وفي موطنها الذي عرفت به منذ ما قبل الإسلام ببعيد، والذي عرفت فيه كلغة حضارة وآداب وفنون وعلوم.

إن العربية التي نتكلم بها اليوم امتداداً لتكلُّم وتخاطب أجدادنا بها منذ الفتح الإسلامي، هي إحدى اللغات السامية نسبة إلى سام بن نوح عليهما السلام، وكان أحد العلماء الألمان (شلوزر) أول من أطلق على اللغات التي كانت منتشرة "من المتوسط إلى الفرات، ومن بلاد ما بين النهرين إلى شبه الجزيرة العربية"[1] لغة سامية مستقيا ذلك من التوراة (سنة 1781). وهذه اللغة كانت في بدايتها لغة مشتركة بين كل الشعوب السامية مثل العبريين والبابليين والآشوريين والفينيقيين والعرب... باعتبار هذه

الشعوب وغيرها من الشعوب السامية القديمة كانت تشكل أمة واحدة، في حين أن المصريين وشعوب شمال إفريقية كانت تتكلم اللغة الحامية التي هي أخت للسامية، بل ذهب بعض الألمان (نولدكة) سنة 1887 إلى أن افريقية في اعتقاده، هي الموطن الأصلي للساميين بسبب التشابه الكبير بين اللغتين الحامية والسامية، وفي القرن الماضي (العشرين) أخذ بعض الباحثين الغربيين (بارتون) باعتقاده[2]، بل لاحظنا في الآونة الأخيرة البعض يقيم مقارنة دلالية واشتقاقية بين بعض الألفاظ الحامية في الجزائر والعربية، مثلما فعل ذلك الدكتور عثمان سعدي.

وتحديد إفريقية كموطن أول للشعب السامي القديم تؤيده، العوامل الجيولوجية والطبيعية وقدم الحياة واستقرار القارة، ولاسيما في جنوبها، منذ عهد سحيق يتقدم وجود الساميين أنفسهم[3]، وتكون نتيجة هذا الاعتقاد أن افريقية كانت تتكلم اللغة السامية القديمة التي يرجِّح جل الباحثين اللغويين (الفقلغيين) أنها هذه العربية نفسها، باعتبار العربية هي اللغة الوحيدة التي لا تزال تضم كل خصائص اللغة السامية القديمة، وباعتبارها إحدى اللغات التي ظلت منعزلة – والانعزال هنا لا يعني الموت- عن العناصر اللغوية والاجتماعية الأجنبية (لا يدخل في هذا الاعتبار طبعا العرب المتاخمون للأمم الأجنبية المحيطة بجزيرتهم، ولذلك لم يقبل الرواة والنحاة الاستشهاد بلغاتهم) في صحرائها بشبه الجزيرة العربية، وباعتبارها اللغة السامية الوحيدة التي ظهرت كلغة أدبية راقية قبل الإسلام، ثم لما جاء الإسلام كانت لغة قرآنه وقضائه ودولته وعباداته ومعاملاته وحضارته جميعا، وبذلك زادها منعة وقوة، وأصبح الدرع التي تحميها من كل غزو وتجميد (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)، وفعلا لقد برهن الإسلام في أحلك الظروف المتخاذلة، وفي أطول الفترات

التاريخية المتضاربة، وأمام أعتى وأقوى استعمار بشري وديني انحرافي حديث وقديم، وأمام أحدث لغات أجنبية وأكثرها سيطرة على العالم كله لأعدائه ومناصريه بأن لغته قوية ما دام الإسلام –وسيبقى- قوياً.

وحين بدأ يعتريها بعض الوهن والفتور من سقوط بغداد سنة 565هـ، وظهور الصليبيين منذ سنة 491 هـ في شن غاراته على المشرق العربي والإسلامي وكذا مغربه بعد فشلهم في المشرق، وبروز سياسة التتريك على أنقاض المماليك سنة 923هـ، إلى إقبال الاستعمار الغربي بقضه وقضيضه لينتقم للدولة الرومانية التي احتضرت على يد أبناء الجزائر في المغرب وعلى يد خالد بن الوليد في اليرموك، لتغريب ما استطاع جزءاً أو أجزاء من العالم العربي، ومحاولة احتلال أرواحنا بعد ما حاول أن يعبث، دون أن يفلح، بأجسادنا، تدخّل الإسلام بكل قواه الروحية السمحة ليقف مكشوف الظهر والصدر، وبكل تحدٍّ وثقة، حاجزاً مانعاً كالطود الشامخ أمام كل التيارات الغربية المغرية مادياً والممسوخة روحاً وأخلاقاً، وأمام كل الشطحات المحلية الرجعية.

أثر الإسلام في تطور العربية:

إذا أردت أن تعلم الأسباب التي بها انتشرت العربية، فإنك لن تجد علة أقوى سببا من انتشارها مع انتشار الإسلام، وإذا أحببت أن توجز أو تطنب عن سبب تطور العربية وما جد فيها من دلالات واشتقاقات ما عُرِّبَ فيها ونُقِلَ إليها من كلمات، وأقيم حولها من دراسات لا تزال حتى اليوم الند العنيد لأحدث دراسات لسانية،... فإنك لن تجد سببا أكثر دقة من تأثر هؤلاء وأولئك بالإسلام الذي خدمهم فأرادوا أن يخدموه، وأفهمهم بعد جهل فأحب الغيورون عليه أن يفهموه أمما إسلامية غير عربية، والذي

أنار للأولين منهم السبيل، فأراد التالون والتابعون أن يرسموا أبعاد هذا السبيل لخلفهم حتى لا يضلوا ولا يتخلفوا ولا يحاروا،... متى رغبوا أن يجتازوه طولا ويعبروه عرضا.

ورغم أن علماء العربية القدماء يجمعون على أن ما انتهى إلينا منها هو الأقل، كقول عمر بن الخطاب: "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزوا فارس والروم ولهيت عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب فألّفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منهم أكثره"[4] أو كقول أبي عمرو بن العلاء: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير"[5] أو كقول ابن سلام نفسه: "ومما يدل على ذهاب العلم وسقوطه قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد والذي صح لهما قصائد بقدر عشر، وإن لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة..."[6]، مع قرار بعض الفقلغيين (فقهاء اللغة) العرب له كقول ابن فارس: "ذهب علماؤنا -أو أكثرهم- إلى أن الذي انتهى إلينا من كلام العرب هو الأقل... وأحرى بهذا القول أن يكون صحيحاً، لأنا نرى علماء اللغة يختلفون في كثير مما قالته العرب، فلا يكاد واحد منهم يخبر عن حقيقة ما خولف فيه، بل يسلك طريق الاحتمال والإمكان..."[7].

ورغم أن هناك تراكيب وألفاظا بعينها قد كانت فزالت بزوال العصر الجاهلي ومجيء الإسلام، مثل: أنعم صباحا، وأنعم ظلاما، وأبيت اللعن، وقول المملوك لمالكه: ربي، وتركهم مناداة من لم يحج: صيرورة لنهي النبي

(صلى الله عليه وسلم) عن هذا: "لا صيرورة في الإسلام"،...[8] وغير هذا من أساليب وكلمات كثيرة، فإن ما جاء به الإسلام وعوضه العربية كان يشكل أضعاف أضعاف ما فقد أو هجر أو أهمل، ويكفي هنا أن نستدل بالفقلغي العربي ابن فارس "إذ يقول: "كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم، في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم، وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخربزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت، فعفّى الآخِرُ الأول،... فكان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن والعلم والكافر والمنافق،..."[9] فكانت هذه الكلمات تدل على دلالات فأضحت تدل على دلالات جديدة (فعفى الآخِرُ الأوَّلُ)، وانظر إلى كل أو بعض الكلمات الفقهية، وإلى ما شرعته التشريعات الإسلامية، وانظر إلى كل المصطلحات اللغوية والنحوية والصرفية والصوتية، وتأمل في كل أوبعض ما جد في الحضارة الإسلامية من أسماء في الفنون والعلوم والفلسفة والنظم الإسلامية من مصطلحات عسكرية ومدنية وقضائية وبريدية وديوانية، وفي كل حقل من حقول البحث العلمي،... تَقِفْ حائراً مشدوداً إلى تفسيرات قد تحلّق بك في الماورائيات من أجل تصديقها وقبولها، إذا لم تعرف مصدرها الحقيقي والمباشر ألا وهو الإسلام.

إن أثر الإسلام في اللغة العربية كان أمراً طبيعياً بأن يثريها ويطورها ويطوعها، لأن أيَّ مدلول أو مستحدث في المجال التكنولوجي مهما كان نوعه فهو ليس شيئا ليعجز العربية أمام قدرة هذه اللغة على سعة واستيعاب كلام الله لفظا لفظا وآية آية، أم هناك تكنولوجية أوسع مدلولاً من مداليل القرآن، وأقصى حاجة من حاجات القرآن الذي لم تعجِزهذه اللغة عن نظمه وتبليغه وتفهيمه، وإن كنا لا ننكربأن سر النظم راجع إلى البناء القرآني الداخلي، علاوة على عجزنا من الإتيان ببعضه

في بنائه الخارجي أيضا، ورغم ذلك فإن قدرة العربية على احتوائها للقرآن الذي يعد أعظم وآخر مقياس من مقاييس قوة أو ضعف هذه اللغة أو تلك، تبدو حين يهم أبرع واحد حاذق للغة أجنبية إلى جانب حذقه للغة العربية في ترجمة القرآن الكريم إلى هذه اللغة.

وأثر الإسلام راجع إلى أمر طبيعي أيضا متعلق بروح الإسلام الذي هو قبل كل شيء دين وحضارة وعلم وتدبر ودعوة إلى البحث العلمي الجاد والأقصى، بل حتى تطبيق كل حركة من حركاته أو فرض من فروضه لا يكاد ينفصل عن العلم، فالإسلام والعلم كلاهما مرتبط بصاحبه، ولا يمكن لأحدهما أن يستغني عن الآخر، ولئن كنا نرى أن الإسلام لم يستغن ولن يستغني في يوم عن العلم، بينما العلم أمكن له مرحليا أن ينفصل عن الدين، فإن هذا الأخير سوف يخضع إن آجلاً أو عاجلاً إلى الدين الصحيح ليستمد منه قوته الروحية والأخلاقية والإهدائية حين يصل إلى درجة معينة لا يطيق معها إلا الخضوع لهذا الدين أو التحطيم على نفسه وعلى البشرية جمعاء، ولن يجد عندئذ دينا أحق بالخضوع إليه غير الإسلام لما يوجد بينهما من تآلف واتحاد في خدمة البشرية وإسعادها، فالإسلام ينير، ويهدي، والآخر يستنير فيهتدي.

وحين نقول: أثر الإسلام في العربية، فإنا لا نتصور انفصام أو انفطام اللغات العالمية عن هذا الأثر المتبادل بين أخذ حيناً وعطاء حيناً آخر، ولربما قد تكون استفادت هي من هذا الأثر أكثر من العربية نفسها، وهذا ما سنشير إليه ونمثل عليه قبل نهاية هذا الحديث، ومن هذا القبيل، باعتبار العربية قد احتوت على كل الحضارات الإنسانية القديمة والوسطى، وباعتبارها لم تقف مشدوهة أمام ماترجمت، بل بعد استيعابها إياه هضما وسعة طورته وزادت عليه زيادات شهدت به

الحضارة الحديثة، وباعتبارها تعتبر القنطرة الرابطة بين النهضة الغربية الحديثة والحضارات الإنسانية القديمة،... فإنه يباح لنا من هذه الوجهة القول بأن الإسلام كان ذا أثر، ولو بطريق غير مباشر في غير العربية أيضاً.

انتشار العربية:

لا أريد أن أتناول هذا الانتشار على نحو ما يتناوله لغوي من اللغويين فيدخل فيه عوامل متنوعة، لأن منهجي في هذه الكلمة القصيرة واضح، وإن كنت أومن بأن هناك عوامل مساعدة لهذا الانتشار علاوة على العامل الرئيس ألا وهو الإسلام.

إن هذه العربية كان يتكلم بها قوم قليلون، يجهل عددهم أثناء مجيء الإسلام، داخل شبه الجزيرة العربية، وكان ناطقوها ينطقونها سليقة وجبلة، فلم تكن لها مدارس ولا مدرسون، ففصحى العرب قبل الإسلام وبعده، بقليل أو كثير (متفاوت حسب المناطق أو القبائل التي كانت عرضة للفساد السليقي أو في منعة عنه إلى وقت ما) كان يتعلمها الناس كما نتعلم نحن اليوم العامية سليقة من غير مدرسة ولا مدرسين، وليس من شأني الحديث هنا عن الاختلافات بين الباحثين في هذه المسألة.

ولما أهل الإسلام، وجعل ينتشر، أخذت العربية تنتشر معه بسرعة مدهشة، وأقبل على تعلّمها حتى بعض من لم يعتنق الإسلام دينا، لأن الدولة أصبحت عربية، والمصلحة الدنيوية كانت تقتضي من غير المسلمين أن يتقنوها حتى ينالوا مناصب راقية في الدولة العربية الإسلامية الفقهية، وما علمنا أحدا: عالما ولا متعلما، فقيها فيها ولا مرتزقا بها،... شكا من تعلمها صعوبة، ولا حتى فكر في تفضيل بقايا لهجاته المحلية عليها أو مساواته بها، بعد تعلمه إياها.

كانت العربية تصطدم بلغات ولهجات محلية مفتوحة، فلم تكن تمضي إلا مهلة حتى تبتلعها الواحدة بعد الأخرى ابتلاع اقتناع ورضا وطيبة نفس من اللهجات أو اللغات المفتوحة، فإن لم تستشفَّ منها هذا الاقتناع المطلق فإنها كانت لا تجبرها بل ولا تكرهها، وحتى المقتنعة منها فإنه ربما لم يكن يصدر ذلك الاقتناع عنها عفويا أو حتى من إعجابها بهذه اللغة الدخيلة عليها دخول أمن وسلام كلغة، لأنه من الصعب أن يستكين الند للند من أية ظاهرة اجتماعية واحدة، بقدر ما كان ينبعث من نفس معجبة بظاهرة لسانية كيف استطاعت أن تسع كل آيات ومعجزات هذا الكتاب الذي هو القرآن.

ولم تكن العربية تفرض أبداً على بلد مفتوح بأي مظهر من مظاهر العنف أو الجبروت أو الإرهاب أو التعصب للعرقية البغيضة، وإلا فكيف نفسر أن عدد المسلمين الذين ينطقون العربية أقل ممن يتكلمون غيرها؟ كما أننا كيف نفسر مظاهر البقايا اللهجية حتى في بلدان العالم العربية المتعربة؟ إن السكان المفتوحين إثر كل فتح عربي إسلامي مبارك كانوا يتهافتون شوقاً وطواعية على اعتناق لغة دينهم كما أقبلوا في الآن ذاته على اعتناق الإسلام نفسه، وفي هذا الشأن يقول أحد المستشرقين الروس (بارتولد: 1927): "ولم تكن غلبة اللغة العربية بعد ذلك بسلطان الحكومة بل بالاختيار، وكان انتشار اللغة العربية في الأقوام غير الإسلامية أمراً لا ترغب فيه الحكومة كثيراً، فمنع تكلُّم النصارى اللغة العربية وتعلُّمُ أولادهم في مدارس المسلمين، ورغم هذه الحال صار الإسلام دينا رغب فيه أكثر الشعب واتخذت الشعوب غير المسلمة اللغة العربية لغة لها. ويمكن تفسير رواج اللغة العربية هذا الرواج بأن العرب لم يعتمدوا على قوة السلاح فقط كالجرمان والمغول والإيرانيين القدماء، ولكنهم أنشأوا منذ القرن السابع الميلادي لغة أدبية متقدمة في ساحة الفكر تقدماً واضحاً"[10].

فكان العرب يتجهون بعد كل فتح إلى تعريف البلاد، فقد حدث تعريب الدواوين منذ زمن عبد الملك بن مروان، فبدأ بتعريب دواوين الشام والعراق، وكان للحجاج فضل كبير على العربية في هذه العملية الرائدة، ثم عربت أنحاء الدولة الإسلامية كلها حوالي 124هـ، وكان للتعريب أثره الفعال في انتشار العربية بين المفتوحين[11]، وكان الإسلام دائما يسبق انتشار العربية، ولربما انتشر دون أن تنتشر لكون الإسلام دائماً يسبق انتشار العربية، ولربما انتشر دون أن تنتشر لكون الإسلام لم يشترط في معتنقه أن يكون متعرباً، ثم لأن الفاتحين العرب أو المتعربين منهم كانوا لا يشكّلون إلا أقلية ضئيلة بالنسبة لأهالي البلاد، وهي السُّنة التي سنها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي هذه السُّنة من الذكاء ما لا يغرب عن بال أحد، ولكن لما كان القرار الذي أصدره المعتصم (218 هـ) بإسقاط أعطيات العرب من الديوان، جعل العربية والدين ينتشران أكثر، لأنه اضطر العرب إلى الاختلاط والتصاهر والتعامل أزيد وبطريق مفتوح أمام غير العرب.

ومما ساعد على انتشار العربية بالمغرب العربي أن مصر كانت قد أخذت سبيلها إلى التعريب التام بحيث أصبحت اللغة العربية اللغة الرسمية للدواوين بمصر منذ سنة 87 هـ[12]، كما أن الفاتحين لهذا البلد لم يكونوا كلهم عربا بل كانوا من أجناس شتى وحد بينهم الدين وصهرهم في بوتقة واحدة لغة واجتماعاً وحقوقا وواجبات، فشجعهم المعربون (بتشديد الراء وفتحها) إذاً من غير العرب على تعلم العربية، علاوة على شعورهم بالنقص والصعوبات في المعاملات الاجتماعية والحربية والسياسية والإدارية بينهم وبين الحكومة العربية الإسلامية الجديدة، إن هذه العوامل وسواها جعلت هؤلاء السكان يقبلون على العربية تعلماً وإتقاناً في ظرف قصير يدهش الجميع، ولكن هذه الدهشة لا تلبث أن

تزول حين نعلم السرعة المذهلة التي انتشرت بها هذه اللغة في المشرق وجزء كبير من آسيا ثم في جزء من أوروبا شرقا وغرباً، بل إن هذه الدهشة تكون أكثر زوالاً حين نؤمن بأن العربية كانت تتلو دائماً الفاتحين -بشكل جزئي أو أعم- ولكنها لم تكن لترحل برحيلهم بل كانت تضرب بجرانها في أي بلد يحل به الدين الإسلامي، وسبب ذلك أن هذا الدين لم يكن يرحل مع الراحلين أو يضعف بضعفهم، ولأنه مرتبط باللغة ارتباطاً جوهرياً –رغم أنه لم يشترط في معتنقه العربية- وهذا ما يجب أن يرغب فيه كل مسلم إذا أراد أن يعرف دينه بغير واسطة، وما أكثر ما تكون هذه الواسطة أحياناً سببا من أسباب ضعف العقيدة عند المسلم لجهله بلغة دينه، أو من أسباب فهم دينه فهما كيفما اتفق، وهذا الجهل بالعربية من جهة، والإهمال غير المحسوب العواقب على المدى المتوسط من السلطات والحكومات العربية والإسلامية المركزية، هما اللذان تحصد الشعوب العربية والإسلامية نتائجه الوخيمة منذ نهاية القرن الماضي إلى يومنا هذا، نتيجة لفتاوى ضالّة ومضلِّلة أعمت عقول وبصائر فئات شبابية مسلمة عالمياً بفضل استغلال وسائل الاتصال الحديثة، وإذ كنا لا ننكر أن هناك أسباباً أخرى لهذا التهوّر، فإن العامل الرئيس والجوهري إنما يكمن كموناً خفياً وقوياً في جهل هؤلاء المغرَّر بهم باللغة العربية، ورحم الله القائل القديم: "أكثَرُ مَنْ تَزَنْدَق من أهل العراق جَهْلُهُم بالعربية". وما هذا المسمَّى "ربيعاً عربياً" عفواً "خريفاً أعجمياً" إلا زندقة جديدة.

أياً كان الأمر، فإنّ الاختلاط العربي بأهل المغرب له ما يوطده ويفعله، ذلك أنه حتى عندما سقطت القيروان في يد كسيلة بعد مغادرة عقبة لها نحو المغرب الأوسط فالأقصى، بقي المسلمون ومن كانوا قد اسلموا تحت يد كسيلة البربري، وهذه الكاهنة تأسر ثمانين عربياً أو متعرباً في حربها الأولى مع حسان بن النعمان، ثم ترسلهم وتحسن إليهم، ولكنها

تبقي على يزيد بن خالد القيسي الذي هو عربي صليبة إعجابا بجماله ثم تتبناه ليصبح أخا لولديها[13] ثم إن البربر بعد هزيمة الكاهنة يستأمنون إلى حسان "فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من جميع قبائلهم اثني عشر ألفا[14] يكونون مع العرب مجاهدين[15] فأجابوه وأسلموا على يديه، فعقد لواءين لولدي الكاهنة، لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس، وأخرجهم مع العرب يجولون في إفريقية يقاتلون الروم وممن كفر من البربر، وحسن إسلام البربر وطاعتهم وانصرف حسان إلى مدينة القيروان، وذلك في رمضان سنة أربع وسبعين... وقد استقامت له إفريقية فلا يغزو أحداً ولا ينازعه أحد"[16].

ثم هذا موسى بن نصير يعود من طنجة بعدما يترك وراءه طارقا في نفسه العدد الذي عقده حسان لولدي الكاهنة مع سبعة وعشرين من العرب، ولكنه لم ينصرف إلا بعد ما أوصى العرب السبعة والعشرين بتعليم إخوانهم القرآن وتفقيههم في الدين[17].

ومهما ذكرنا من أسباب وحشدنا من دلائل مادية فإن السبب الوحيد الذي أدى إلى انتشار العربية سواء بالمغرب العربي أم بمشرقه أم في جهات أخرى قصوى أو دنيا من آسية وأوروبية الإسلاميتين، هو الإسلام ليس غير، ولذا فإني لا أعد كل سبب مادي سوى الإسلام إلا عاملاً مساعداً كان تابعاً دائماً للانتشار الديني، فخذ لك مثالا من مصر حيث "كانت اللغة اليونانية قبل الفتح العربي واللغة التركية في العهد العثماني لغة البلاد الرسمية، ولكن هذا لم يجعلهما لغة الشعب المصري، فكان اليونانيون ينزلون المدن ويصبغونها بحضارتهم ولكن نفوذهم الثقافي لم يذهب للريف إلا قليلا، فلم تنتشر اللغة اليونانية إلا في بيئات خاصة، وعاش اليونانيون في مصر كأنهم جزر يونانية في وسط المحيط المصري الواسع،

وكذلك عاش الأتراك في بيئات خاصة في مصر ولم يستطيعوا جعل لغتهم لغة البلاد الأصلية بالرغم من أن الحكم التركي دام عدة قرون، ولكن حدث في عهد العرب تفاعل واختلاط بينهم وبين المصريين، وبدون هذا التفاعل والاختلاط لا يمكننا أن نفسر كيف ترك الفلاح المصري القديم لغته رغم تمسكه بالقديم والحرص عليه"[18]، وإن كنا لا نتفق مع من يقول بأن التفاعل المصري العربي هو الذي يفسر لنا في النهاية الحائرة سبب إقبال المصريين على اللغة العربية، لأنها تعترف بنفس التفاعل والذي كان أسمى حضارة مع اليونانيين ومع ذلك لم يترك الفلاح المصري لغته القبطية ليقبل على اللغة اليونانية، والصواب عندنا أن الذي جعل المغربي والآسيوي والأوروبي والإفريقي يقبل على العربية هو نفس الحافز الذي جعل الفلاح المصري يقبل عن طواعية على العربية، لأن الإسلام لا يمنع أي امرئ حين يهجر لغته أن يظل متمسكا بعاداته ومثله التي لا تتنافى مع الدين.

وتستطيع أن تأخذ مثالا حيا آخر من بلد المليون ونصف مليون شهيد، فالرومان استعمروا هذا الوطن بعد الإغريق خمسة قرون، ثم جاء بعدهم الوندال، ثم البيزنطيون مرة أخرى، ثم الفرنسيون في العصر الحديث، ومع ذلك فإن الشعب المغربي قاطبة لم يقبل على إحدى لغات هذه الشعوب، في حين أقبل على العربية في لمح البصر، فما السبب؟ ...

ولهذا فإن حفاظ العرب المسلمين اليوم على لغة دينهم يجب أن تكون فوق كل اعتبار مهما كان الثمن، لأنه حفاظ على إرادة أجدادنا الأوائل الخالدة ووفاء لا جدال فيه لأرواحهم ولشهدائنا البررة، وأن كل تفريط في هذا يعد خيانة لا مقياس لها في الإدانة.

وإذا أردت أن تأخذ طابعاً عاما عن الفتوحات الإسلامية وما صحبها من انتشار العربية أو قرآنها وحديثها على الأقل، فيكفيك أن تعلم أن عدد المسلمين في العالم قد بلغ في نهاية 1964 (وهو إحصاء قديم طبعا) حوالي: 634.300.000[19] مع العلم بأن ما بعد العصر الوسيط حتى ما قبل النهضة الحديثة كان عصرا مظلما بالنسبة لخدمة الإسلام والتبشير به،وفوق هذا وذاك كان الاستعمار الغربي المسيحي يعمل على تشويهه ومحاربته لأنه دين الحرية والمساواة ودين الألفة والرحمة والتآلف والتراحم بين الشعوب بصرف النظر عن الأجناس والألوان والأديان والطبقات الاجتماعية، وهو منهج في الحياة يتعارض مع مصالح ومناهج الاستعمار وجشعه المادي وغرامه الاستعبادي للشعوب.

ولعلنا نكون قد استيقنا أن عوامل انتشار العربية مهما تعددت وتفاوتت قوة وضعفاً، فإنه لا يمكن فصلها عن عوامل انتشار الإسلام نفسه، وأبرز تلك العوامل، علاوة على ما ذكر تصريحاً أو تلميحاً، أن الدين الإسلامي بطبيعة قواعده الميسرة يدعو إلى التوحيد الجنسي تحت راية واحدة، فمن أجل المساجد وصلوات الجمع ومشاركة المفتوحين من الأجناس غير العربية مع الفاتحين العرب منذ الوهلة الأولى، ومن أجل التفاعل الجنسي والتصاهر، وسرعة انتشار الفتوحات سرعة أدهشت ولا تزال تدهش إلى وقتنا هذا المؤرخين،... فمن أجل هذه العوامل كذلك انتشرت العربية انتشارا واسعا وسريعاً، هذا فضلا عن عوامل أخرى اجتماعية ولغوية بحتة، كالتجانس اللغوي السابق وجوداً بين بعض اللهجات المفتوحة والعربية، وفضلا، كما ألمحنا سابقاً، عن حوافز نفسية إرادية صرف كإقبال المسلمين وحتى غير المسلمين الجدد دينا أو تعاشراً وتعاملا على العربية إقبال راغب لا إقبال راهب.

تأثير العربية في غيرها من اللغات:

لم تقف العربية أمام الحضارات الإنسانية الكبرى مثل الحضارة المصرية والرومانية والفارسية واليونانية حائرة ولا عاجزة بأن تولي الأدبار، بل اقتحمت هذه الحضارات كلها، بعد أن صَفَّتْ حسابها مع اللهجات المحلية، من أبوابها الواسعة بكل ثقة وقوة فاستوعبتها ترجمة وتعبيراً وتطويراً ثم تبليغاً للحاضر والغائب، فأصبحت العربية بذلك اللغة القديمة الوحيدة التي عول عليها الأوروبيون إثر نهضتهم الحديثة، التي كانت السبب المباشر في تطويرهم فكريا وتكنولوجيا بل وحتى فنيا وأدبيا وفلسفياً[20] بواسطة أعلامها الأفذاذ من أطباء وفلاسفة وأدباء وغيرهم من الاختصاصيين.

والألفاظ العربية التي دخلت لغات أوروبية عديدة، وكان لها الفضل العظيم لأن يدل بها الأوروبيون وهم ينهضون من رقادهم العميق على مداليل علمية وفنية واجتماعية، وإن كان الغربيون لا ينفكون حتى اليوم يصمون آذانهم، ويغمضون عيونهم أمام كل لفظ عربي غزا لغاتهم غزواً لم يجدوا منه أو من قبوله بداً، فالعرب كانوا أكثر نزاهة من لغويهم ولسانهم، فمنذ الوهلة الأولى تساءلوا حول وجود ألفاظ أعجمية في القرآن الكريم نفسه أم لا، وذهبوا في ذلك فريقين، لأن ألفاظا أعجمية كانت دخلت العربية قبل نزول القرآن، فلما جاء جاءت فيه كما كانت في العربية لأنها لم تعد أجنبية ولا غريبة عنهم وهم عبَّروا بها وقد استعملوها في أشعارهم وآدابهم وأحاديثهم، كما خصوا الألفاظ الدخيلة كلها بأبحاث علمية رائدة فيما يسمى اليوم بعلم اللغة المقارن، ولربما خصوها بأبحاث مستقلة كـ"المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم" لأبي منصور الجواليقي (540 هـ)، وهذه النزاهة في البحث العلمي والبعيدة عن العرقية والمثالية هي التي كانت سببا أكبر في تقدم الدراسات العلمية وخلودها عند العرب[21].

تقول زيغريد هونكه الألمانية: "أجل، إن في لغتنا كلمات عربية عديدة، وإنا لندين -والتاريخ شاهد على ذلك- في كثير من أسباب الحياة الحاضرة للعرب، وكم أخذنا عنهم من حاجات وأشياء زينت حياتنا بزخرفة محببة إلى النفوس، وألقت أضواء باهرة جميلة على عالمنا الرتيب، الذي كان يوما من الأيام قاتما كالحا باهتا، وزركشته بالتوابل الطيبة النكهة، طيبته بالعبير العابق، وأحياناً باللون الساحر، وزادته صحة وجمالاً وأناقة وروعة..."[22].

ومن الكلمات التي انتشرت في مختلف اللغات الأوروبية:

العربية	الفرنسية	الانجليزية	الروسية	اليونانية
الانبيق	Alambic	Alembic		
البرقوق	Abricot	Apricet	Aprices	
الجبر	Algébre	Algebra		
الخوارزمي	Algorithme	Algerithm		
الزجاج	Zagaie	Assegai		
القلي	Alcali	Alceli	Alcati	
الكحل	Alcool	Alcehel	Alcagel	
الكيمياء	Chimie	Alchemuy	Alhimia	
تعريف	Zarif	Zariff	Zarifa	Zarifa
أمير البحر	Animal	Adminal	Adminal	Adminal
دار الصناعة	Arsenal	Arsenal	Arsenal	

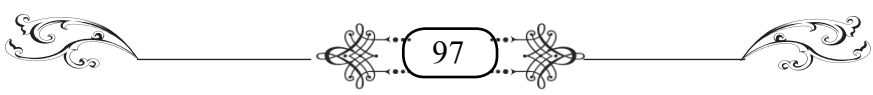

سكر	فـــي كـــل اللغـــات الأوروبيـــة			
شراب	Sirop	Sirop	Sirep	Sirep
	وهـو فـي الأرمنيـة		Charab	
شرق	Sirere	Sirece	Sirece	Sirece
صفر	Chiffre	Chiffre	Chiffre	
صفر	Zére	Zéro		
مخزن	Magasin	Magasin	Magasin	Magasin
مطرح	Matelas	Matelas	Metals	
يربوع	Gerboise	Gerbose		

.....

.....إلخ.

ومع انتشار العربية وتوسع الفتوحات الإسلامية في القارات انتشر كذلك الخط العربي الذي يعد أكثر قدرة على كتابة الأصوات التي هي من جنسه، وأيسر وأسرع تعلما على إجادة وممارسة أية قاعدة إملائية، فبصوائته الثلاثة الطويلة يستطيع استيعاب أية لغة أجنبية مع تطعيمه بما لا يوجد فيه من رموز دالة على بعض أصوات تلك اللغة الأجنبية، حتى إن دولا إسلامية كثيفة بقيت محتفظة بلغاتها وبعض لهجاتها بعد ما أضافت إليها غير قليل من الألفاظ العربية، ولكنها اتخذت الخط العربي خطا رسميا للغاتها ولهجاتها، وصار يكتب بالخط العربي حوالي سبع وثلاثين لغة ولهجة.

ومما يجب الإشارة إليه أن انتشار العربية وبتوسع الفتوحات الإسلامية كان له أثران: أحدهما سلبي ولكنه طبيعي في سلبيته، وآخرهما إيجابي، ولكنه عظيم في إيجابيته.

فالأثر السلبي يتجلى في فساد الملكة اللغوية العربية بعد الاختلاط العربي الأعجمي واستفحال العلاقات اللغوية الاجتماعية، فتسرب بذلك اللحن والفساد إلى اللغة العربية حتى كاد يصبح خطراً عليها وعلى العرب أنفسهم لولا إخماده في مهده ومقاومته في حينه، زيادة على انقسام الفصحى إلى هذه اللهجات العامية في الوطن العربي بعدما حرفت على ألسن العوام في محاصيلها النحوية والصرفية والصوتية ولكنها لم تبعد عنها –وهذا من حسن حظ العربية والعرب- في محاصيلها الدلالية ما عدا ما قد اعتراها من ألفاظ أجنبية دخيلة لم تعرب بعد، لأن في فصحانا ما يوجد بديلا لها.

وأما الأثر الايجابي العظيم فهو تشمير العلماء العرب والمسلمين الغيورين على لغة دينهم، على سواعدهم، وسعيهم سعيا مشكوراً في إقامة قواعد نحوية وصرفية ثم بلاغية لها، وتوسيع الدراسات فيها وتنويعها وتطويرها، فكان لهذا الجهد مظهر علمي أصيل سيظل العرب والمسلمون يذكرونه لهم أبد الدهر، فوضعت المؤلفات، وصيغت القواعد إحصاء وإحكاما، ونشطت الدراسات العلمية فيها إلى جانب الدراسات الفقهية والتفسيرية والتاريخية والعلمية البحتة.

ولعلنا حين نجد الإسلام يتقدَّم كل هذه العوامل مجتمعة، فذلك لأنه كان المحرك الأول، والمنشط الدءوب لكل ما جد أو تطور في كل الحقول

العلمية والإنسانية على ساحة الإمبراطورية العربية الإسلامية من المحيط إلى آسيا القصوى، ثم ما لبث كل هذا أن نعمت به أمم وشعوب حديثة في الشرق والغرب باعتبار الإسلام قبل كل شيء شمسا ما طلعت إلا لتشرق على الجميع، وإلى أن يحدث الله أمراً كان مفعولاً.

إحالات ومراجع

1 - من الساميين إلى العرب، ص: 9، الشيخ نسيب وهيبة الخازن، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط: 1962.

2 - نفسه، ص: 11.

3 - هذا لا يعني أنني أميل أغْلَبَ الميْلِ إلى الرأي القائل بأن إفريقية هي الموطن الأول للساميين، والأرجح عندنا، بناء على بحث مخطوط لدينا منذ أواسط السبعينيات من القرن الماضي، أن الشعب السامي كان ما بين إفريقية وآسية جميعاً.

4 - طبقات فحول الشعراء، ق1/ ص: 24 – 25، محمد بن سلام الجمحيّ، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.

5 - نفسه، ص : 25.

6 - نفسه، ص: 26.

7 - الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ص: 68-67. أحمد بن فارس، تح: د. مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران، بيروت، ط: 1963.

8 - ينظر المرجع السابق، ص: 89 – 93.

9 - نفسه، ص: 78 – 81.

10 - تاريخ الحضارة الإسلامية، ص: 63 بارتولد، ترجمة حمزة طاهر، دار المعارف، مصر، ط: 4/1966.

11 - ينظر: مصر في عصر الولاة، ص" 119 – 120، دة: سيدة إسماعيل ، مطابع دار القلم، القاهرة.

12 - نفسه، ص: 141.

13 - تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 58. الرقيق القيرواني، تح: المنجي الكعبي، الناشر: رفيق السقطي، شارع فرنسا، تونس، ط: 1968.

14 - والغريب أنّ طارقاً البربري الأصل فتح الأندلس بالعدد نفسه قبل أن يلتحق به موسى بن نصير بمدد آخر.

15 - عدد الفاتحين كان كله مسلماً.

16 - تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 64.

17 - يراجع المصدر السابق، ص: 69 – 70.

18 - مصر في عصر الولاة، ص: 141.

19 - المسلمون، المجلد التاسع، العدد الرابع، ص:45 – 49.

20 - راجع: شمس العرب تسطع على الغرب (الكتاب السابع: الفصلان الخامس والسادس) زيغريد هونكه، دار المعارف، مصر، ط: 4 /1966.

21 - يوجد دارسون غربيون موضوعيون يشيرون إلى ألفاظ عربية غير قليلة ولجت لغاتهم بطرق احتكاكية مباشرة، وبطرق غير مباشرة.

22 - شمس العرب تسطع على الغرب، ص: 20.